اخترنا لك :

الرسول في كتب الغرب

الحديثة

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

حديثنا اليوم عن الرسول في كتب الغرب الحديث .

والمصطلح عليه أن العصر الحديث يبدأ في الغرب من منتصف القرن الثامن عشر : عصر الحرية والعلم والثورة على القديم .

ومفتاح كل سر من أسرار ذلك العصر المضطرب هو هذه الكلمة . كلمة الثورة على القديم . . فقد كان لهذه الثورة أثرها في آراء المتكلمين من أبناء ذلك العصر عن نبي الاسلام عليه السلام .

كان أنصار التجديد يعلنون الثورة على الجامدين من رجال الدين ومنهم من كان يواري ويوارب فيتخذ لهذه الثورة أسلوبا غير الأسلوب الصريح ، وهكذا صنع فولتير في المسرحية التي كتبها باسم « محمد » وقال فيها كل ما أراد أن يقوله عن رجال الدين في عصره ، كأنه يتكلم عن نبي الاسلام وأئمة المسلمين .

ولم يشأ فولتير أن يهجم على سلطان رجال الدين في الغرب هجمة صريحة . وكان يهمه عند كتابة تلك المسرحية أن يعلن آراءه ولا يتعرض من جرائها للسخط والحرمان ، فاتخذ لها ذلك الأسلوب المنحرف ، ولم يكترث لحقائق التاريخ ولا للأدب في الخطاب ، ونسب إلى النبي عليه السلام أمورا كان يريد أن ينسبها إلى الجامدين من رجال الدين في عصره ، فلم يخف قصده على العارفين ، ولامه هؤلاء على التوائه ، وعلى نفاقه وريائه ، وكان من هؤلاء اللائمين نابليون الكبير في حديثه مع الشاعر الألماني جيتي فإنه أنكر تلك الصورة

الشوهاء ، وقال إنها لا تصدق على محمد . . . أن محمدا لرجل عظيم ، ولا يجمل تصوير العظماء بهذا الأسلوب .

ويعتبر كلام فولتير عن الرسول نموذجا للصراحة المبرقعة فى الحملة على أنصار الجمود ، وقد كان كل كلام عن الرسول من هذا القبيل ، يجمع بين الرياء والجهل بحقيقة الإسلام .

ثم انتهى القرن الثامن عشر وأقبل القرن التاسع عشر بحالة نفسية وحالة فكرية غير تلك الحالة أقبل بمعرفة أوفى وحريه أصرح واقوى ، فمن تكلم عن محمد عليه السلام فانما كان يتكلم عن علم لم يكن ميسورا للغربيين قبل ذلك ، إذ كان العارفون منهم باللغة العربية وباللغات الشرقية عامة قليلين ، وكان المنقول من كتب الدين الاسلامى نادرا مشوها محصورا فى المشتغلين به من الباحثين المتفرغين للدراسات الشرقية . فلما أقبل القرن التاسع عشر كثرت هذه الكتب ووصل العلم بها إلى غير المستشرقين ، وأصبح الاطلاع عليها بدعة محمودة بين طلاب الثقافة والتبحر فى الاطلاع ، فظهرت الكتابة عن الاسلام ، وعن نبى الاسلام ، على نهج جديد .

إذا كان فولتير نموذجا للكتابة الغربية عن الرسول فى القرن الثامن عشر ، فإن توماس كارليل هو النموذج الصادق لهذه الكتابة فى القرن التاسع عشر ، وقد كانت كتابته عنه متسمة بسمة الاعجاب والانصاف ، لا ينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيرا منها عن نبى الاسلام . . . ويكفى للدلالة على موقف كارليل أنه أراد أن يختار مثلا واحدا للبطولة فى صورة النبى فلم يجد أحدا أحق بالاختيار فى هذا المقام من محمد عليه السلام وكان من همه أن يفند كل شبهة شائعة عن الدعوة الإسلامية فى مبدأها ، فقال إن الذين يزعمون أن محمدا نشر دعوته بالسيف لا يتصورون مايقولون ، فقد كانت دعوة محمد دعوة رجل واحد أمام قوم مجمعين على تكذيبه

وليس أعجب من صورة رجل واحد يحمل السيف ليقنع به كل منكريه .

ولقد تقدمت دراسة التاريخ فى القرن العشرين ، وتتبع الأوربيون أصول حضارتهم فعرفوا أنها مدينة بالقسط الوافر للحضارة الإسلامية وأن عصر العرب فى الأندلس كان من العصور الذهبية فى تاريخ القارة الأوربية ، وعمل رد الفعل عمله فكان أشد الناس إعجابا بالحضارة العربية أولئك الكتاب الذين نشأوا فى الأندلس نفسها ، وفتحوا عيونهم حيث بلغ التعصب على العرب غاية مداه . فإذا قرأت كاتبهم الأشهر « بلاسكو ابانيز » لمست فى كلامه حزنا عميقا على زوال الحضارة العربية من الأندلس وحنينا واضحا إلى العهد الذى ازدهرت فيه تلك الحضارة ، وقد ختم بعض فصوله عنها قائلا : « ولت ساعة العلم وانزوت الفكرة الأسبانية فى غياهب الظلمات ، حيث ترتعد بردا فى عزلتها المضنية ، تخبو شيئا فشيئا إلى أن تموت ، ولئن بقيت منها بقية فهى تلك التى تنصرف إلى الشعر والمسرح والجدل الدينى ؛ مذ كان العلم يفضى بصاحبه إلى نار الحريق » .

هذه النظرة إلى تاريخ الحضارة ، وإلى المقارنة بين الحضارات — قد كان لها أثرها فى تعديل الميزان الذى يوزن به رسل الأديان ، وأولهم رسول الاسلام .

فمن كتب عن محمد عليه السلام فى القرن العشرين ، علم أنه مطالب — بحكم العصر الذى يعيش فيه — أن يقول شيئا يوافق العلم ولا ينسب إلى التعصب والجهالة ، فلا يزن محمدا بميزان غير الذى يزن به الرسل والأنبياء من سائر الملل والدعوات ؛ ومن لم يكن من هؤلاء الكتاب مرتزقا بالدين فهو يخجل من التحامل على صاحب دين كبير لغير سبب ، إلا أنه ولد على غير دينه ! وهو يرى عقله من وصمة التعصب الضيق بمحاولة الانصاف ما استطاع .

بل وجد من أولئك الكتاب من يثيره أن يسمع أحدا يعيب على النبى إنه « راعى ابل » فيجيبه

صاحبه أن أتباع ذلك النبي قد تعلموا عنه درسا غير الذى تعلمته من دينك ، فإنهم يسمون تلاميذ السيد المسيح بالحواريين ، وكان فى وسعهم أن يقولوا عنهم أنهم جماعة من الصيادين !

وإذا قلنا ان المرتزقة بالدين هم وحدهم الذين يصرون على بضاعة العيب والتجريح ، فليس معنى ذلك أن رجال الدين الأوروبيين جميعا ينكرون فضل النبي ويستبيحون العيب فيه ، بل معناه أن هذا الخلق الشائن محصور فى طلاب الرزق باسم الدين . . . أما العلماء الدينيون فمنهم أناس يحاسبون ألسنتهم وأقلامهم ويجتهدون فى قول الحق على حسب طاقتهم ، وقد كتب أحدهم الدكتور بوكيه كتابا عن الأديان المقارنة فقال عنه « انه نشر فى الشرق مثلا أعلى للحكم والأخلاق الإنسانية أوسع وأنظف وأحدث وأقوى من أمثلة الدولة البيزنطية » . . . ثم قال : « وأن الحكم على شخصيته أيضا ليتطلب الانصاف من أولئك الذين ينظرون إليها بعين الغرض . فان الاخبار التى لا داعية للشك فيها تصوره لنا فى صورة رائعة من الجمال ، بوجه مليح فطن ، وعينين سوداوين نفاذتين ولحية سابغة ، ورصانة فى القول وبلاغة صارمة ، مع عطف فى أطيب حالاته ، وحنان على الأطفال »

وينبغى أن نذكر أن هؤلاء الكتاب غير مسلمين ، فهم لا يقولون فى النبي كل ما يقوله المسلم ، ويكفى منهم أنهم لا ينكرون كل ما يقوله عن تعنت أو مكابرة بغير دليل .

وظهر فى هذه السنة كتاب عن الاسلام لمؤلفه « الفريد غليوم » أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن قال فيه عن نبي الاسلام : « علينا من المبتدأ أن نقرر أن محمدا كان واحداً من أعلام التاريخ العظماء وكان يقينه الغالب أنه لا إله إلا الله ، وأنه يدعو إلى ملة واحدة ، وكانت قدرته على التدبير بين المشاكل المعقدة التى كانت تواجهه قدرة خارقة بغير مراء ، فما استطاع عربى بقوة الجيوش والشرط والدواوين أن يجمع شمل قومه كما فعل . فان قيل أن العالم

الاسلامى عند وفاته كان عالما صغيرا بالقياس إلى دولة خلفائه ، فالجواب على ذلك أن عوامل الشقاق جميعا كانت كامنة فى بلاد العرب أيام حياته فلم يظهر منها شىء حتى فارق الحياة » .

ثم قال بعد استطراد وجيز : «كان رجلا لم يخذله الرأى السديد قط ، ومن أنكر عليه ذلك فإنما يلج فى إنكاره على الرغم من الدلائل البينة على رجاحته وفطنته وفهمه الصحيح للآخرين ولما كان يجرى فى العالم من حوله » .

ومن كتاب التصوف الدينى فى العصر الحاضر بول برنتون صاحب كتاب النفس العليا وكتاب الحقيقة الباطنة الذى صدرت منه ثمانى طبعات ، وفى هذا الكتاب يضرب المثل لمن يعملون فى الدعوة إلى الحق فيقول « . . : ان كثرة العدد لا تهم ، وأولئك الأقوام الغافلون ليس لهم حساب ، فانما هم زيادة فى حجم الانسانية ليس الا ، وكل ما كانت له قيمة فانما يفعله ويهتدى إليه فى أول الأمر فئة قليلة . وقد كان محمد يقول عن السيدة خديجة زوجته أنها صدقتنى حين كذبنى قومى ، فانه مضت عليه ثلاث سنوات وليس له من الأتباع غير ثلاثة عشر . . . ثم انتشرت دعوته بين الملايين » .

وفى الكتاب الذى أصدرته مطبعة جامعة برنستون عن الأديان العظمى ، يقول ادوارد جورج صاحب الفصل المخصص للدين الاسلامى : « ان ايمانه الذى لا يتزعزع برسالته الالهية وصدق دعوته يقيمه مثلا فريدا فى التاريخ ، وان اعتقاده بالغيب الذى هو لباب الكثير من وحيه لهو اللحمة التى تنسج حولها بشارته وعظاته ، ومن ثم أصبحت رسالة السيادة الربانية العليا ضرورة عاجلة ملحة ، وتلك نواة تلك الرسالة العلوية الموحاة إلى محمد ، وبغيرها لا يتأتى لنا أن نفهم الوحدانية فى الإسلام » .

كتب هذا الفصل بروح مستمدة من الشرق ، واجتمع فيه ومن عشرة فصول أخرى كتاب وسط عن ديانات الصين والهند واليهودية ومذاهب المسيحية الكبرى : وهى

الارثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية ، وكلها مكتوب بأسلوب كهذا الأسلوب .

ومن أحدث المترجمات إلى اللغة الانجليزية كتاب العالم البلجيكي هنري بيرين عن محمد وشارلمان ، وعنوان الكتاب يشير إلى مضمونه ، ومضمونه يتلخص فى بيان أسباب الانقلاب الأوربى الذى ينسب فى أوربا إلى شارلمان ، ولكن المؤلف يرى أن الفضل فيه لمحمد وأتباع محمد ويقول فى فاتحة الجزء الثانى منه : « ان الفتح العربى الذى أوقع ما أوقع من القلق فى أوربة وآسية لم تكن له سابقة ، ولا تقارن سرعته بغير السرعة التى قامت بها دولة المغول بقيادة أتيلا وجنكيز خان ، وتيمور لنك . . لولا أن هذه الدول زائلة ودولة الاسلام باقية ، فلم يزل للإسلام أتباعه فى كل بلد دخله الخلفاء الأولون ، وقد كان ذيوعه كذيوع البرق معجزة حقيقية . . » .

وبعد ، فليس فى الوسع احصاء كل ما كتب عن النبى فى مصنفات الغرب الحديث ، ولكننا نتحرى أن نقتبس أحدثه وأدله على اتجاه الكتابة العصرية فى سيرة الرسول الكريم ، وفيما تقدم من الأمثلة دلالة كافية ، ومنها نعلم أن احترام الكاتب لقلمه وكرامة علمه يضطره إلى اجتناب اللغو الذى شاع فى القرون الماضية ، ولا يزال يشيع فيما يكتبه المرتزقة من أدعياء الدين والتبشير بالدين ، وأنه ما من أحد كتب عن الرسول وتوخى أمانة العلم إلا ردد فيه قول القرآن الكريم : « انك لعلى خلق عظيم » .

عباس محمود العقاد

* * *